# نماذج من الحياة اليومية للشعوب النيوليتية

## من خلال الفن الصخري الصحراوي

جوهرة أوبراهم

جامعة الجزائر2

مقدمة:

يعد الفن الصخري المرآة التي عكست جوانب عديدة من الحياة اليومية والاجتماعية للمجموعات البشرية التي استقرت بالمناطق الصحراوية خلال العصر الحجري الحديث وما بعد العصر الحجري الحديث ، والتي اعتمدت كما يبدوا في الرسومات والنقوش في البداية على القطف وصيد الحيوانات البرية خاصة الظباء والغزلان ووحيد القرن وانواع من البقريات وغيرها من الحيوانات، وهي فترات تزامنت مع بداية هذا الفن المعروفة بالجاموس العتيق والرؤوس المستديرة والمؤرخة بنهاية البلايستوسان وبداية الهولوسان .
وقد تغيرت الأنماط المعيشية لهذه المجتمعات خلال المرحلة الموالية المسمات بالبقرية او الرعاة المؤرخة بالألف السادسة، أين بدأ الإنسان يهتم برعي البقر وتربيته وذلك بعد استئناسه. هذا الحيوان الذي أخذ مكانة مهمة عند هؤولاء واتسم بالرمزية والقدوسية فيما بعد .
خلال المرحلة الحصانية المؤرخة بالألف الثانية بدأت تظهر عناصر جديدة عند هذه المجتمعات ، خاصة العربة المجرورة بالأحصنة او البقر المعروفة

بنمط الركض الطائر، وكذا الحصان المركوب والرموز الكتابية ،بجانب مشاهد صيد حيوان الأروى والغزلان والظباء وكذا انتشار الصرعات بين الافراد، بظهور الاسلحة المختلفة كالرمح والذرع ثم السيوف. .

اما المرحلة الاخيرة من هذا الفن المعروفة بالجمالية المؤرخة بأواخر الألف الاولى ق. ح. ، فقد عبر الإنسان عن البيئة الجافة بهذه المناطق بتمثيل الجمل، مع نقص تدريجي للبقر والقطعان الاخرى وانتشار الرموز الكتابية والترحال .

من خلال هذا البحث نحاول ابراز اهم النشاطات والانماط المعيشية التي اعتمدها الإنسان إزاء بيئته المتذبذبة، اعتمادا على المعطيات الفنية المرسومة والمنقوشة على واجهات الصخور وجدران الملاجئ نحاول تلخيصها كالتالي:

**1-الصيد والقطف:**

نشاط عرفه الإنسان منذ ظهوره على الكرة الأرضية خلال فترات ماقبل التاريخ لكسب القوت والحفاظ على البقاء واستمر حتى الفترات الحديثة، وهي المواضيع التي عالجها الفنان النيوليتي وجسدها في شكل لوحات مرسومة ومنقوشة على الصخور، وضحت أكثر طرق الصيد والأسلحة المستعملة في ذلك خاصة القوس والنبال والدابوس وأسلحة الرمي وغيرها، وحتى الأنواع الحيوانية المفضلة كالظباء والنعام و الأروية والسلالات الضخمة منها كوحيد القرن والفيلة وهي المرحلة التي لم يقم الإنسان فيها باستئناس هذه الحيوانات، رغم تحدث بعض الباحثين عن محاولة اخضاع خاصة بالنسبة للأروية خلال الرؤوس المستديرة (Hachid M., 2014) وحتى نتائج الدراسات الحديثة المطبقة على البقايا العظمية تؤكد وجود سلالات مستأنسة خلال الألف الثامنة قح. بالشمال(Marzoug S. et al., 2016 )، ولم يهمل الفنان حتى رسم الصيادين وانواع الألبسة والأقنعة التي كان يرتدونها أثناء الصيد والقنص وحتى جلودها للتمويه وجلب الفرائس، عرفت هذه المواضيع بالأطلس

الصحراوي والصحراء الوسطى بالطاسلي أزجر والأهقار حتى بالأكاكوس بليبيا (صورة .1 و2).

**صورة.1- أشخاص تصطاد نعام تيوت الأطلس الصحراوي**

**صورة.2- شخص يصطاد كركدن واد جرات**

بالنسبة للقطف واستغلال الزراعة فرغم التأكد بان انسان ماقبل التاريخ كان يقطف ويستهلك الثمار البرية وحتى الجذور لكن تبقى هذه الإشكالية عالقة امام غياب الاثار الملموسة عن ذلك في المواقع الاثرية، إلاّ أنّ بعض المشاهد وضحت أشخاص كانت تقطف ثمارا معينة خاصة في رسومات الرؤوس المستديرة بتين تفرياست وجباران ( Aumassip G., 2006 ) والمرحلة البقرية باهران وصفار وجبران وان اتنن بالطاسلي ، كما صورت خلال الفترات الحديثة مشاهد للنخيل واستغلاله في يوف أغلال وأقنار بالأهقار وبواد جرات وتين أنوين بليبيا (Breuil H., 1952, :190) .

اما اشكالية استغلال الزراعة وتهجين النيات تبقى مجهولة وغامضة بشمال إفريقيا والصحراء رغم اتفاق بعض الباحثين على أن وجود ادوات الرحي من مطاحن ومدقات ومهاريس وبقايا فخار، ما هي إلا دليلا قاطعا على استهلاك

البذور مزروعة كانت او برية (Ballouche A., 2012) عدا بعض البقايا القليلة من حبات الطلع بموقع منيات وامكني، لكنها يستبعد ان تكون حبوب مهجنة بل تمثل نوعا من البشنة Pennisetum glaucum (Camps, G., 1969) أرخت بالألف السادسة (Aumassip G., 2001 :169 )

وكذا بقايا موقع تحت الغار بالمغرب الأقصى المتمثلة في حبوب وقمح مهجنة محروقة تمثلTriticum ducoccum ، وحسب الدراسات الحديثة، فان اقدم ممارسة للزراعة بالصحراء لا تتعدى الالف الثالثة (Aumassip G., 2006).

2-الرعي وتربية القطعان :

لقد كانت العلاقة بين الإنسان والحيوان خلال ماقبل التاريخ علاقة الصياد بفريسته، باعتباره مصدر غذاء (اللحوم والحليب) للحفاظ على البقاء ومصدر المادة الاولية كالجلود، والصوف والوبر لصناعة اللباس وربما الخيم. هذه العلاقة تطورت او بالأخص تغيرت اتجاه بعض السلالات الحيوانية خلال العصر الحجري الحديث، في الفترة التي حاول الإنسان حمايته وتربيته، لكن بعد عملية الإخضاع، ثم الاستئناس او التدجين ومنه تربية واكتساب قطعان . وتعد البقر والمعز والغنم والخنازير من الحيوانات المستأنسة من طرف الإنسان خلال هذا العصر في حدود 9500 إلى 9200 ق.ح. خاصة بموقع موريبط وأزواد بسوريا وموقع كافر بجنوب شرق تركيا (Vigne J.D., 2007) في حين يعتبر الكلب الحيوان الذي استأنسه الإنسان مبكرا في اواخر العصر الحجري القديم الاعلى خلال 14 الف سنة ق. م(Gauthier A., 1990:04).

وقد أكدت معطيات الفن الصخري اهمية القطعان كمنتوج أساسي ومصدر اقتصادي عند المجموعات الرعوية خلال المرحلة النيوليتية الرطبة ، التي امتدت في مناطق جغرافية متنوعة في الشمال والجنوب خاصة بالأحواض الوسطى، مما يعزز توفر الكلاء والمياه بهذه المناطق وعدم معاناتها من

الجفاف الذي تبدا بوادره خلال النصف الأولى من الألف الرابعة ق م .هذا الاخير اي الجفاف الذي يدفع بهؤولاء الرعاة إلى الترحال في الكثير من الحالات للبحث عن مناطق حيوية لقطعانهم .

تطورت هذه العلاقة بين الإنسان والحيوان لتأخذ الصيغة الرمزية ، خاصة البقر المصور بكثرة في الفن خلال المرحلة البقرية أو المشكل على شكل منحوتات او تماثيل من الطين او الحجارة التي عثرت عليها في بعض المواقع الأثرية خاصة بتن هناكتن .(Aumassip G., 2013) وكذا العثور على عظام محروقة ومدفونة بمواقع بالصحراء الوسطى كالمنخور يتدرارت الجزائرية (Chaid Saoudi Y., 2007 ,2012) وبالنيجر (Paris F. ,1997) كما عممت ظاهرة تشويه القرون في اتجاهات مختلفة خاصة بالطاسلي

والإندي والتبستي ( Huard P. ,1959) وكذا بجبل سركوت (Ain Seba N. ,2002 ) استمرت نفس السلوكات خلال الفترات القديمة عند المصريين وبمملكة الكرمة بالسودان (Chaix L.,1993 2004 ,2006)وحتى عند الرعاة الحاليون بنهر هومو شرق إفريقيا (Timothy I. et al., 2015:96 ) .

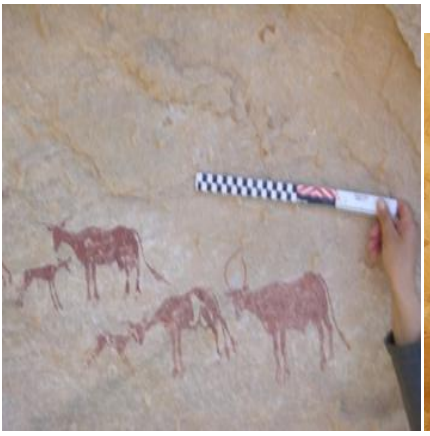

**صورة . 4،3– تمثلان تربية البقر بتهيهاوت والغنم بصفار (الطاسلي أزجر)**

**اما عن استغلال الحليب فالمشاهد المرسومة تؤكد ذلك، من خلال تمثيل بعض مشاهد الحلب وبقر بأضرع منتفخة خاصة بواد تكساتين وأرهار بالمساك وجبل العوينات بليبيا (Van Albada A.1996 ) والإمدير بالاهقار وتهيهاوت بالطاسلي أزجر(اوبراهم ج.، 2017) نفس التقاليد عرفت أيضا خلال الفترات الحديثة من الفن تصور ناقة بأضرع بجانب صغارها بواد جرات Dupuy (Ch.,2014) .كما انّ تمثيل الحيوانات بجانب صغارها أثناء الحلب، ظاهرة لوحظت في مجموعة من المشاهد وفي مناطق عديدة بواد جرات شرق الطاسلي (Lhote H., 1976 ) وبتهيهاوت شمال غربها، وحتى عند المصريين خلال الألف الثالثة والثانية ق ح. و بالسودان وفي بلاد الرافدين مما يدل على أهمية الصغار بجانب أمهم لطمئنتها والتخلص من الخوف ومنه اطلاق الحليب وهي تقاليد مزالت تمارسها الشعوب الرعوية الإفريقية الحالية (Ballasse M. et al., 2000 : 41 ) .**

### 3-التخيم والترحال :

وضحت الرسومات الصخرية مشاهد تدل على استقرار تخيم مجموعات بشرية في مناطق حيوية ملائمة، لمدة شبه دائمة أو مؤقتة دلت عليها تلك الأشكال البشرية، نساء ورجال وأطفال صورت بجانب زرائب أو خيم ذات أشكال مختلفة بالقرب من قطعان البقر والغنم وهي بذلك تعبر عن بيئة ملائمة تتسم بنوع من الرطوبة تسمح لهؤلاء بالاستقرار .كما مثلت في بعض المشاهد حتى مراحل وطرق انجاز الخيم الإهليجية أو المستطيلة أو ذات زاوية مقوسة أو على شكل حبة فاصولياء التي وجدت خاصة بإهران وبصفار وجباران بالطاسلي أزجر، التي يبدو انّ النساء هي التي تهتم بتركيب الخيمة وهي وظيفة لوحظت أيضا عند رعاة الطوارق الحاليين في النيجر ( Hachid M., 2000, 2014 ).

لوحة. 1- مشاهد تخيم واستقرار مثلت فيها الخيم بالطاسلي أزجر

من جهة اخرى وجود مشاهد تصور أشخاص تمتطي أبقار وتهيئ للترحال، يعكس بيئة جافة أو عدم استقرار تدفع بهؤولاء إلى مغادرة تلك الأماكن، بحثا

عن أخرى حيوية توفر الماء والكلاء وحتى الأمن وهذا ما عبر فيه فنانوا المرحلة البقرية في ملاجئ إهران وصفار بالطاسلي أزجر.(صورة.5،6)

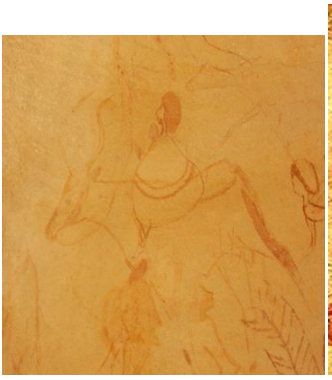

**صورة. 5–نساء تمطي بقر في مشهد ترحال(إهران) صورة.6– إمرأة فوق بقر تحمل طفلا صغيرا (صفار)**

**4-العلاقات بين افراد المجموعة أو القبيلة:**

التمعن في محتويات المواضيع الفنية تبرز وجود قوانين او تقاليد اجتماعية أو ربما طقوسية محكمة تفرضها المجموعة أو القبيلة يسهر عليها كبيرها أو مسؤول، يصور بارزا في المشهد ،إما بمقاسات كبيرة أو بألوان بارزة أكثر عن الاخرين، يحمل عصا الشرفاء تيهاوت (أوبراهم ج.، 2017) توحي بوجود ربما فورارق اجتماعية أو طبقية، خاصة عند المجموعات الكبلانية التي انتشرت في مناطق كثيرة من الصحراء خلال الالف الثانية ق م ، يظهر فيها الشرفاء بلباس مختلف ويجلسون على مقاعد ثلاثية او رباعية الارجل مع استخدام الزنوج أو العبيد في بعض الأشغال (Lhote H., 1952) .

لاحظنا أيضا تقسيم الوظائف اليومية بين الأفراد من الجنس الواحد أو بين الجنسين، أين يتكفل الرجل بالصيد والرعي والذبح والسلخ وحتى حراسة القبيلة، مع تخصيص حمل السلاح للرجال دون النساء إلاّ في حالات استثنائية خلال المرحلة البقرية بالطاسلي. في حين النساء تقوم بالعناية بصغارها داخل

أو خارج الخيمة أو ببعض الأشغال اليومية( الرحي ، طهي الطعام) وتشارك في الاحتفالات المختلفة كالرقص والعزف ولما لا الغناء والشعر.(صورة..8،9،10).

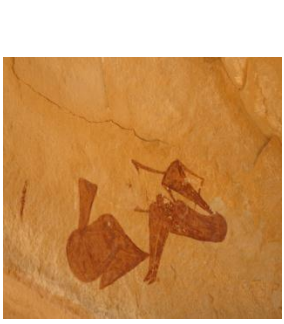

صورة.8-شخصان يتبدلان أطراف الحديث

صورة .9-مشهد رقص مع شخصيات بارزة

صورة .10- شخص بارز يحمل عصا الشرفاء

5- الفروسية وجر العربات :

تنفرد بهذه النشاطات المجموعات الحديثة المصورة في الفن المعروفة بالشعوب الكبلانية التي ابتكرت او جلبت العربات المقرونة بأحصنة أو بأبقار والعجلة، التي يتميز أصحابها ببدلة قصيرة ضيقة على مستوى الخصر، مع

رأس على شكل خطم كلب او معين. كما عرفت أيضا بركوب وامتطاء الخيل المستأنس الذي يتفق الكثير من الباحثين انّه جلب إلى شمال إفريقيا ( Camps G., 1984) رغم التأكد عن وجود الاحصنة في مواقع أثرية عديدة كالألبروج بالجزائر العاصمة (Hadjouis Dj.et al. 1984) وسيدي سعيد بتبازة بالجزائر يعود تاريخها إلى 40 ألف ق. م (Chaid saoudi Y.,2003) وكذا التعرف على تمثيلات الحصان في مناطق بالأطلس الصحراوي (Lhote H., 1982, 1984) وبصخرة الحمام بالأغواط (Aumassip G., 1986).

عرفت أيضا هذه المجموعات البشرية بصرعات مهمة بين أفراد القبيلة الواحدة أو مجموعتين مختلفتين تتعارك فيما بينها بحمل أسلحة مختلفة خاصة القوس والنبال عند المجموعات القديمة مثل ما صور بالإمدير بالأهقار وبمواقع كثيرة بالطاسلي، وتنتشر أكثر مع المجموعات الحديثة التي استقرت بالمنطقة بداية من الألف الثانية والأولى ق م. جراء انتشار الاسلحة المعدنية الرماح والذروع التي كانت تضمن القوة والسيطرة لأصحابها، وهذا ما أكدته أيضا بقايا قرى محصنة في دهار تشيت وولاطة جنوب موريطانيا Dupuy Ch., (2011 :33.) (صورة . 11،12).

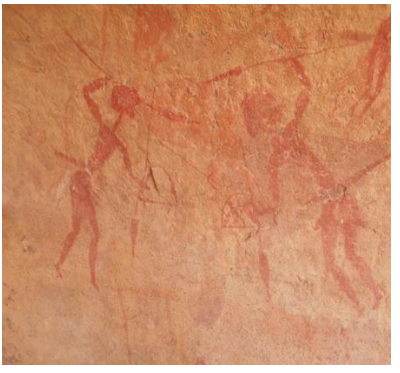

**صورة .12،11- تمثلان مشاهد صرعات بين الأفراد إن التوهامي بالطاسلي وبالإمدير الأهقار**

**6-الحياة العقائدية والمشاهد الطقوسية :**

رغم غياب الشواهد الملموسة عن الطقوس والمعتقدات التي كانت تؤمن بها الشعوب النيوليتة لكن المعطيات الإكونوغرافية وضحت مجموعات من المشاهد، تحوي تفاصيل عن هذا الجانب التي جسدت على شكل رسومات k متبعثرة بين الصحراء الوسطى خاصة بالطاسلي أزجر ، أين حاول البعض تفسيرها ومقارنتها بالشعوب الرعوية الحالية التي مازالت تحتفظ بهذه التقاليد ، خاصة بعض قبائل منطقة الساحل كمشهد اللوتوري بالطاسلي أزجر، الذي يعبر عن فترات التربصات الي يتلقاها الفرد عند البلوغ ليصبح راعيا ماهرا ومحترفا (Hampate Ba A., Dieterlen G., 1966) نفس الشي قام به أيضا البعض الأخر بالاكاكوس بليبيا في تفسير الأيادي المرسومة، وكذا مشاهد السباحة والأشخاص المقنعون بأقنعة حيوانية (Le Quellec J.L., 1993) .

مما لاشك فيه فان هذه المجموعات كانت لها معتقدات وتقوم بطقوس واحتفالات لتخليدها معبرة عن ذلك بالتزيينات والصباغ الجسدية للأشخاص والرقصات الحلقية أو الرقص بالفريسة للعبير عن الصيد الوفير ، وكذا تزيين بعض السلالات الحيوانية المفضلة خاصة الكباش ذو الهالة المعروف بالأطلس الصحراوي والبقر المزين أو مشوه القرون المصور بكثرة بالطاسلي أزجر (Lajoux J.D., 1962,2012) وكذالك حرق ودفن عظامها مثل ما وجد بمقبرة المنخور بتدرارت الجزائرية (Ferhat N., et al., 2000 ) التي تعبر إما عن أضحية او معتقدات كمعتقد البقر.كما انّ تمثيل الحيوان المهيأ للأضحية بشكل ضخم، مهيب وعظيم يدل على طقوس معبرة، مثل ذلك المصور بمواقع عديدية خاصة بالطاسلي ( صورة.13،14)

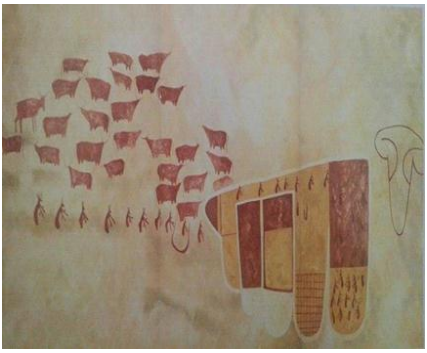

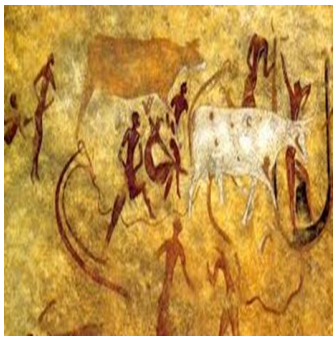

**7-الموسيقى والرقص :**

**رغم الانشغالات اليومية والنشطات العديدة للإنسان للحفاظ على بقائه في تلك الفترات، لكنه كان يحتفل ويرفه عن نفسه بالعزف على الآلات الموسيقية المختلفة التي سبق ان اعلن عنها في الكثير من المواقع الفنية بالصحراء الوسطى، خاصة خلال المرحلة الحصانية. على سبيل المثال تلك المعروفة بواد تكدوين بالطاسلي أزجر، أين صوّرت مجموعة من الأشخاص في مشهد اجتماعي، تستمع إلى الموسيقى ربما مع الغناء والشعر، تصور عازفين جالسين رؤسهم على شكل خطم كلب، يعزفون على قوس الموسيقى له شكل نصف دائري إحدى اطرافه تلتصق بفمهما وهي طريقة العزف على مثل هذه الالة (Tauveron M., 2003 :219).**

**نفس الالة صورت بملجأ أبرير بالطاسلي ناهليكان (Soleilhavoup F., 1994) تحوي عصا طويلة وجزء ابعد شبه بيضاوي، يحملها شخصا بجانب امرأة ومعز (Gauthier Y. C., 1996, :73). مشهد اخر عرف بملجأ تن كبران Tan kebraneبالتفدست بالأهقار، اين مثلت مجموعة اشخاص ترقص وتغني ربما، أحدهم يعزف على الة ذات حبال او أوتار تشبه القتار بجانب راقصات ترتدي لباسا طويلا رؤوسهن على شكل عصا(Streidter K.H.,Tauveron M., 2001b ).**

نفس المشهد ايضا سجل بموقع أفوزيجيار بالأكاكوس بليبيا ، مثلت فيه الة القتار بعصا طويلة وجزء ابعد بيضاوي الشكل، يعزف عليها شخصا جالسا له رأس على شكل خطم كلب بجانب ثلاثة نساء ترقص (Jelinek J., 2004). مشهد خامس صورت فيه سبعة اشخاص تستمع إلى الموسيقة، أحدهم يعزف على نفس الألة ذات العصا الطويلة ، وجزء ابعد ذو شكل لوزي والثاني على قوس الموسيقة يعزف بنفس الطريقة المعروفة بالطاسلي. أما السادس فأعلن عليه في رسومات تن تفرياست بالطاسلي أزجر، اين رسم شخصا جالسا يعزف على الة موسيقية، لكن رأسه مزينا بتصفيفة شعر او ريش على شكل ثلاثة فصوص، بجانبه امرأة بلباس طويل في مشهد رقص(Viallet L.N., 1995)

تقريبا نفس المشاهد سجلناها بمنطقة تهيهاوت ، الأول بملجأ إسكاون يمثل شخصا واقفا له رأس على شكل خطم كلب يعزف على الة ذات حبال او اوتار Instrument à corde او قتار Le luth لها عصا طويلة وطرف بيضاوي باللون الاحمر، والمشهد الثاني بملجأ تونهيك يمثل مجموعة اشخاص تستمع إلى الموسيقى مع راقصات، أحدهم جالس على مقعد رباعي الأرجل يعزف على قوس الموسيقى، بنفس الطريقة التي عرفت في المشاهد الاولى التي ذكرناها سالفا (لوحة .2).